مجلة "نتائج الفكر" الصادرة عن معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة

المجلد السادس. العـدد الأوّل. الرقم التسلسلي 09
السنة 2022. ص 34 – 54
EISSN 2773-2762 / ISSN 2477-992x

# المفارقة الاتّباعية عند ابن قتيبة

# The paradox of the follower of Ibn Qutayba

رابح هاشم[1]، أ.د. بشير دردار[2]

**Hachem Rabah[1], Bachir Dardar[2]**

**مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة**

1 جامعة تيسمسيلت (الجزائر)، **hachem.rabah@cuniv-tissemsilt.dz**

2 جامعة تيسمسيلت (الجزائر)، **bacderdar@gmail.com**



| تاريخ الإرسال: 2021/12/13 | تاريخ القبول: 2022/01/06 | تاريخ النشر 20 / 04 / 2022 |
| --- | --- | --- |



ملخص البحث

يروم هذا البحث بيان تلك الرؤية النقدية التي سعى ابن قتيبة إلى وضع أساسها في الحكم على الشعر "القديم والمحدث"، وفق "معيار الجودة والرداءة" في كتابه "الشعر والشعراء"، مراعيا في ذلك أن يعدل بين القديم والمحدث، ومتجاهلا معيار الزمان والمكان الذي كان سائدا آنذاك في الحكم على جودة الشعر ورداءته. غير أن موقفه هذا اعتراه كثير من التناقضات، بسبب عدم قدرته التخلص من هيمنة النموذج القديم للقصيدة العربية (عمود الشعر). في هذا البحث سنحاول التطرق لهذه الإشكالية مبينين أهم النقاط التي ارتكز عليها ابن قتيبة في تأسيسه لهذه الرؤية وأهم الأسباب التي حالت دون تطبيقه لها

**كلمات مفتاحية:** ابن قتيبة، الاتباع والتجديد، رؤية نقدية، الجودة والرداءة، القديم والمحدث

Abstract:

This research aims to clarify that critical vision that Ibn Qutayba sought to lay its basis in judging “ancient and updated” poetry according to the “criterion of quality and mediocrity ” in his book “Poetry and Poets,” Taking into account that it is fair between the ancient and the updated, ignoring the criterion of time and place that was prevalent at the time in judging the quality and mediocrity of poetry, but his stance was plagued by many contradictions due to his inability to get rid of the dominance of the old model of the Arabic poem (poetry column). In this research we will try to address this issue, explaining the most important points in which Ibn Qutayba relied in establishing this vision and the most important reasons that prevented its application.

**Keywords**: Ibn Qutayba, follow and renewal, critical vision, quality and mediocrity, the ancient and the updated.

**المؤلّف المرْسِل**: رابح هاشم. **hachem.rabah@cuniv-tissemsilt.dz**

**مقدّمة:**

يعد الصراع بين القديم والجديد شكلاً من أشكال الصراع المتكررة والباقية إلى الأزل، والنقطة المحورية الأساسية التي تولد النزاع داخل المجتمعات بحكم الرغبات والغرائز، لذلك نلمحها دائما تبرز على سطح الأفكار، وتعد قضية الخصومة بين القديم والحديث في ميدان النقد الأدبي من أبرز نماذج الصراع الفكري القديم، ذلك أن معيار الزمان والمكان الذي تبناه القدماء؛ لم يكن أبدا مقياسياً صحيحاً لدراسة الشعر والبحث عن الجيد منه، وقد نال ابن قتيبة شهرة واسعة بفضل أفكاره النقدية التي ضمنها كتابه "الشعر والشعراء"، على أن هذا لم يكن بالأمر السهل أو الهين، خاصة إذا علمنا مقدار التوتر والمناخ الشعري والنقدي الذي كان سائدا في تلك الفترة. إذ برز تيار شعري جديد اعتمد على اللفظ والمعنى والصنعة اللفظية، كما أن فترة نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث هجري تعد من الحقب الزمنية التي برز فيها النقد بشكل كبير مع كثير من النقاد أمثال الجاحظ وابن المعتز والمبرد وغيرهم من النقاد الآخرين.

ولد لنا هذا الصراع نتاجا فكريا وأدبيا كانت قضية القديم والحديث محور الدراسات النقدية فيه، فانقسم النقاد حيال ذلك إلى قسمين: قسم ينتصر للقديم ولعمود الشعر، وقسم آخر جديد متحرر يرى أن الشعر فن وصنعة. هكذا بدأت الخصومات النقدية تبدو على السطح، فتعكرت بذلك صفوف النقاد وسلك كل واحد منهم طريقه في الحكم على الشعر، وقد اختار ابن قتيبة في عرضه لأفكاره النقدية منهجا توفيقيا حاول من خلاله أن يعدل بين القديم والمحدث، وفق معيار الجودة والرداءة، ضاربا بذلك معيار الزمان والمكان عرض الحائط، لكن موقفه هذا كان يعتريه الكثير من التناقضات جعلته في كثير من الأحيان يخرج عن المنهج الذي رسمه لنفسه في الحكم على الشعر.

فإلى أي درجة استطاع ابن قتيبة أن يتمثل المنهج الذي رسمه لنفسه في نقد الشعر؟

وهل استطاع ابن قتيبة أن يتحرر من هيمنة القديم في دراسته للشعر؟

في هذا المقال سنعالج الإشكالية المطروحة فيما تقدم ذكره بتناول آراء ابن قتيبة النقدية في كتابه الشعر والشعراء؛ لنبين منهجه في نقد الشعر وطريقته في الحكم عليه، ثم نتعرض بعد ذلك إلى آراءه في نقد الشعر في كتبه الأخرى، لنكشف مدى حرصه على تطبيق هذا المنهج في الحكم على الشعر، وختمنا البحث بدراسة وتحليل لمواقف ابن قتيبة النقدية ناقشنا فيها آراءه حول نقد الشعر وعرضنا فيها أهم النتائج المتحصل عليها.

## 1- آراء ابن قتيبة في نقده للشعر في كتابه "الشعر والشعراء":

يعدّ كتاب الشعر والشعراء آخر ما ألف من كتبه في الشعر ومن أهمها فيما يتصل بالنقد، وأوسعها شمولا لآرائه، وقد قسمه ابن قتيبة إلى قسمين؛ خرج القسم الأول على شكل مقدمة للكتاب موضوعها الشعر، أمّا القسم الآخر فكان موضوعه خاصّا بالشعراء. قال في أوّله: "هذا كتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم وأسماء أباءهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعمّا استحسن من أخبار الرجل، ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليه من الغلط والخطأ في ألفاظهم ومعانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذ عنهم المتأخرون، وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوحدة التي يختار الشعراء عليها، ويستحسن لها إلى غير ذلك مما قدمته في الجزء الأول".[1]

ثم يبين قصده فيقول: "وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجلّ، وحديث رسول الله صلي الله عليه وسلم، فأما من خفي اسمه، وقل ذكره، وكسد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ولا أعرف لذلك القليل أيضا أخبارا. وإذ كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمي لك أسماء لا أدل عليها بخبر أو زمان أو نسب أو نادرة أو بيت يستجاد أو يستغرب".[2] ومن هذا تبين لنا كيف قسم ابن قتيبة كتابه الشعر والشعراء، حيث ضمن الجزء الأول من كتابه أهم القضايا المتعلقة بالشعر التي تتمثل في يلي:

### أ- قضية اللفظ والمعني:

يقول ابن قتيبة: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل في بعض بني أمية:

في كفه خيزران ريحه عبق     من كف أروع في عرينه شمم
يغضي حياء ويغضي من مهابته     فما يكلم إلا حين يبتسم

لم يقل في الهيبة أحد أحسن منه...وضرب حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعني كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حـــاجة     ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على هدب المهارى رحالنا     ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطـــــراف الحديث بيننا     وسالت بأعناق المطي الأباطح

وهذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام مني واستلمنا الأركان، وعلينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح وهذا الصنف في الشعر كثير...وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه قليل الماء والرونق.... وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه...كقول الخليل بن أحمد العروضي:

إن الخليط تصدع فطر بدائك أودع

لولا جوار حسان حور المدامع أربع

أم البنين وأسما ء والرباب وبوزع

لقلت للراحل ارحل إذا بدا لك أودع

وهذا الشعر بيّن التكلف رديء الصنعة...ولو لم يكن في هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه".[3]

من خلال هذا التقسيم الذي وضعه ابن قتيبة يتبين لنا مفهوم اللفظ والمعنى عنده "وليس من شك في أن هذه الشواهد التي ذكرها لكل نوع كفيلة بأن تكشف لنا حقيقة الكلمتين عنده، فإذا تركنا الضرب الأول الذي حسن لفظه وجاد معناه إلى الضرب الثاني الذي يحسن لفظه ويحلوا، إذا فتشته لم تجد وراءه كبير معنى فسنجد أنه يصف الأبيات:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

بأنها أحسن مخارج ومطالع ومقاطع، فكأن كل ما فيها من جمال إنما يعود إلى الشكل الخارجي للألفاظ، وواضح أن ما يعزوه من جمال للألفاظ ليس إلا لتكوينها الصوتي والموسيقي، وما يكون بينهما من إيقاع حسن...فكأن ما يتسبب للفظ عند ابن قتيبة إنما هو وقع الكلمات في الأذن وحسن تأثيرها على السمع، ويري أن هذا منفصل على المعني تماما".[4]

وبهذا فإن المعنى عند ابن قتيبة يشمل مضمون ومحتوى القصيدة وما تحتويه من قيم أخلاقية وحكم فلسفية، ونلمس ذلك جليا من خلال الشواهد التي أوردها. فبيتا الحزين الكناني يدلان على الهيبة، وبيت لبيد يدل على الكبر، ولهذا السبب نفسه أسقط الأبيات السابقة (ولما قضينا من منى) وجعلها ممن حسن لفظه وساء معناه، ويعلق الدكتور محمد مندور على نظرته للمعاني فيقول: "أنها نظرة ضيقة، إذ من الواضح

أن مادة الشعر ليست المعاني الأخلاقية، كما أنها ليست الأفكار، وأن من أجوده ما يمكن أن يكون مجرد تصوير فني، كما أنه ما لا يعدو مجرد الرمز لحالة نفسية، رمزا بالغ الأثر قوي الإيحاء، لأنه عميق الصدق على سذاجته، ولعل من خير الأمثلة على ذلك قول ذي الرمة الشاعر الرقيق الحس وقد حط رحاله بمنزل الحبيبة وتفقدها فلم يجدها:

عشية مالي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في التراب مولع

أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفي والغربـان في الـــدار وقـــع

فأي معنى يريد ابن قتيبة من مثل هذه الصورة الجميلة الصادقة".[5]

ويعلق العشماوي على رأي ابن قتيبة في قضية اللفظ والمعنى بقوله: "وأغلب الظن أن الذي أعجب ابن قتيبة في قول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

ليس هو التعبير عن حالة نفسية استطاع الشاعر أن يحققها تحقيقا رائعا في كلماته البسيطة عندما أشاع الإحساس بالجزع على موت صاحبه واللوعة لفراقه...نقول: أغلب الظن أن ابن قتيبة لم يعجب في البيت بهذه المشاعر كلها، وإنما الذي أعجبه فيها؛ أنها حقيقة من حقائق النفس، وهي عجز الإنسان العاجز أمام قوة الموت، وفما عدا هذا من مجرد التعبير عن المعنى اللاذع الذي يملأ قلب الشاعر لفقدانه صاحبه. ليس لدينا من شك إذن، بعد دراسة الشواهد التي تمثل بها ابن قتيبة، من أن كلمة المعنى عنده هي الأفكار الفلسفية والخلقية الخاصة، أو التصورات الغربية أو الطرائف النادرة. أما مجرد التصوير الفني لحالة نفسية أو شعورية خاصة فليس من المعنى في شيء".[6]

ومن هذا التحليل يتبين لنا أن الشعر الذي لا يحتوي على مضمون أخلاقي أو حكم فلسفية أو طرائف غريبة أو تصورات نادرة؛ لا يعتبر في نظر ابن قتيبة شعرا ذا معنى، لأن معنى الشعر عنده يتمثل في المحتوى المنطقي للكلام الذي يحوي حكم فلسفية وأخلاقية.

**ب– قضية القديم والمحدث:**

حدد ابن قتيبة لنفسه منهجا منذ البداية في كتابه الشعر والشعراء، أعلن فيه الثورة على القديم وعلى طريقة تفكيرهم، وعلل ذلك بأن العلم ليس له زمان ولا مكان ولا يضبطه وقت دون وقت حيث قال:" ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلدوا واستحسنوا بإحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل

بين الفريقين وأعطيت كلاً حظه ووفرت عليه حقه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له، إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم جديداً في عصره، وكل شرف خارجية في أوله فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بروايته، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخزيمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم فكل من أتي بحسن من قول أو فعل أو فعل ذكرناه له، و أثنينا عليه به، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه، كما أن الردي إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه".[7]

بهذه المقدمة بدأ ابن قتيبة كتابه الشعر والشعراء، متمثلا الأسس التي بنى عليها نقده للشعر نجملها فيما يلي:

1- الجودة والرداءة في الشعر ليست مقصورة على زمن دون زمن «ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن».

2- كل شاعر في زمنه يُعد محدثا، لذلك لا فرق بين قديم ومحدث في الشعر إلا في الجودة. «فقد كان جرير والفرزدق والأخطل محدثين...ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم».

3- الجودة والرداءة في الشعر لا ترتبط بشيء خارجي، كحداثة السن أو شرف القبيلة أو الشاعر، وإنما يُثني على كل من جاء بشعر حسن.

ولو تأملنا هذا الكلام لوجدنا أن ابن قتيبة قد وضع منهجا جديدا يستحق الثناء والتقدير، وهو منهج أنصف فيه الشعر وأدخله مرحلة جديدة في النقد مبنية على أسس منطقية تحتكم إلى معيار الجودة والرداءة، بعيدة عن الأحكام الذاتية القديمة المتعصبة للزمان والمكان، غير أنه لو تصفحنا كتاب الشعر والشعراء، وانتقلنا من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي "ألفينا ابن قتيبة يهمل في كتابه الشعر والشعراء رجلين من أبرز شعراء عصرهما، شغلا الناس بهما زمنا ليس بالقصير، وهو أبو تمام والبحتري وثانيها —كما هو معروف- يمثل طريقة العرب أو يقوم بعمود الشعر كما قال، و أولهما يغوص وراء المعاني ويغرق في البديع".[8]

لذلك حق لنا أن نتساءل: ما مفهوم الجودة والرداءة في نظر ابن قتيبة؟

يقول الدكتور عثمان موافي: "ويبدو أنه يقصد بذلك عذوبة اللفظ وطرافة المعني، ويتصل بذلك صحة الوزن وحسن الروي، ونبل المعنى ونبل قائله وحسن التصوير، وهذه هي مقايس المحافظين في نقد الشعر التي ترتبط ارتباطا وثيقا بعمود الشعر عندهم".[9]

بهذا يكون ابن قتيبة قد رجح كفة القدماء على المحدثين دون أن يصرح بذلك، فهو عند استخدامه لمقاييس الشعر التي يبني على أساسها معيار الجودة والرداءة؛ إنما اعتمد على المقاييس القديمة المتمثلة في عمود الشعر، "فإذا وزنا بها القديم رجح، وخاصة في هذا الموضوع، لأن المحدث الذي يطالب بان يجاري القدماء في وصف الأطلال وهو لم يعاين حياة البادية، وإنما يعيش في المدينة في الحضر بين الحدائق والقصور، مقصرٌ لا محالة، لأنه مقلد غير مبتكر يجري في ذلك على نهج مطروق لا جديد فيه ولا مجال لجديد".[10]

وواضح من هذا المنهج أن ابن قتيبة قوم الشعر المحدث بمقياس المحافظين من النقاد، فكل ما وافق الشعر الجيد من القديم وسار على نهجه قبله، وكل ما لم يوافقه يرفض، ولعلّ هذا التعليل يفسر لنا اسقاط أبو تمام وهو رائد الشعراء المحدثين من كتابه الشعر والشعراء، فعدم التزامه بعمود الشعر وإغراقه في المعاني ومخالفته للقدماء؛ فرض على ابن قتيبة أن يسقطه من قائمة الشعراء المحدثين عنده.

وبناء على هذا يمكننا القول: "بأن ابن قتيبة لم يقبل الشعر المحدث جملة، بل قبل بعضه ورفض بعضه، وأن موقفه من هذا الشعر؛ لم يتعد اتخاذ الجيد من القديم أساسا لقبول هذا الشعر أو رفضه".[11]

### ت- قضية الطبع والصنعة:

قسم ابن قتيبة الشعراء إلى متكلفين ومطبوعين، ثم فصّل القول فيهما من وجهة نظره، فبدأ بالتعريف فقال: "ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقافة، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة، وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكّك، وكان زهير يسمي كبر قصائده الحوليات".[12]

ثم قال: إنّ المتكلف من الشعر لا يخفي على أهل العلم بالشعر: "والمتكلف من الشعر وإن كان جيد محكما فليس به خفاء على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء، ورشح الجبيين وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه".[13]

ومن أمثلته قول الفرزدق في عمر بن هبيرة لبعض الخلفاء:

أوليت العراق ورافديْهِ فزاريّ أحذَّ القميص

يريد: أوليتها خفيف اليد: يعني في الخيانة، فاضطرته القافية إلى ذكر القميص، ورافده (الدجلة والفرات).
وكقول آخر:

من اللواتي والتي واللّاتي زعمن أني كبرت لداتي

وكقول الفرزدق:

وعضَّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلَّف

فرفع آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يرضي، ومن ذا يخفي عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه؟ وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فشتمه وقال: على أن أقول وعليكم أن تحتجوا! وقال: " وتتبين التكلف في الشعر أيضا بأن تري البيت فيه مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن لجئ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه".[14]

هذا من التكلف في الشعر ومظاهره وأقدر الناس على إدراكه وكشفه.

أما المطبوع من الشعراء فعرفه بقوله: "والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر* واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة*، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحَّر*".[15]

ويعتبر ابن قتيبة أن الشعراء ليسوا سواء في الطبع وإنما هم مختلفون فيه قال في ذلك: "والشعراء أيضا في الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء. ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل. وقيل للعجاج: إنك لا تحسن الهجاء؟ فقال: إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نَظلم، وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم، وهل رأيت بانيا لا يحسن أن يهدم."[16]

وابن قتيبة رفض التسليم برأي العجاج هذا وعلق عليه بقوله: "وليس هذا كما ذكر العجاج، ولا المثل الذي ضربه للهجاء والمديح بشكل، لأن المديح بناء والهجاء بناء، وليس كل بان بضرب بانيا بغيره. ونحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيرا، فهذا ذو الرمة، أحسن الناس تشبيها وأجودهم تشبيبا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة، وماء وقراد وحية، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وذاك أخّره عن الفحول، فقالوا: في شعره أبعار غزلان ونقط عروس. وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل، مع ذلك لا يجيد التشبيب. وكان جرير عزهاةً عن النساء عفيفا، وكان مع ذلك أحسن الناس تشبيبا وكان الفرزدق يقول: ما أحوجه مع

عفته إلى صلابة شعري، وأحوجني إلى رقة شعره لما ترون".[17] ولعل الذي لمح له ابن قتيبة من خلال هذه الفقرة قول ابن سلام: "من أن الشاعر يفضل الآخر بكثرة ما يجيد القول فيه من الأغراض. ولهذا تخلف ذو الرمة عن الفحول من زملائه لأنه لم يجد القول إلا في الوصف بينما أجاد زملاؤه في كثير من الأغراض وخاصة المديح والهجاء. وكان لهما الشأن في عصره".[18]

### ث- بناء القصيدة العربية:

تكلم ابن قتيبة عن أسس بناء القصيدة العربية القديمة، ووضع لها أصلا من الأصول النقدية ألزم الشعراء بالسير على نهجها، وعدم الخروج على منوالها، ولعل ابن قتيبة في هذا وقع في الذي حذَّر منه في بداية كتابه، حيث يقول: "إن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها ظاعنين عنها إذا كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ. وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسي، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق، ليُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء السامع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء، فليس أحد يخلو من أن يكون معلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع إليه عقَّب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأهيل، وقرر عنده ما قاله من المكاره في السير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزَّه للسماح وفضله على الأشباه وصغَّر في قدره الجزيل".[19]

وبعد أن بين ابن قتيبة بنية القصيدة العربية، يأتي بعد ذلك ليفرض على الشعراء عدم الخروج على هذا النهج الذي ارتسمه الأقدمون حيث يقول: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عن مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر، والرسم العافي. أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي. أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة" [20].

بالرغم من الطرح الموضوعي الذي قدمه ابن قتيبة حول قضية الشعر المحدث فإنه رفض أي تجديد يمس الأصول العامة لبناء القصيدة العربية، وبهذا يكون قد أغلق المجال أمام المحدثين للولوج لأي تجديد يكون سببا في تغير الأطر الفنية للقصيدة العربية. ويبدو من طرحه هذا أنه يقصد بذلك أبا النواس ومن سار على نهجه الذين كثر وقوفهم على القصور والحانات بدلا من أطلال الصحراء، وأعلنوا ذلك في شعرهم بوضوح يقول أبو النواس مثلا:

عاج الشقي على رسم يسائله     وعجت أسأل عن خمارة البلد

والواقع أن " أبا النواس على صواب في هذا، لأن يصف أطلال عصره ومجتمعها الحضري لا أطلال العصر الجاهلي وبيئته البدوية وهذا برأي الصدق الفني بعينه".[21]

كما يرى طه إبراهيم أن ابن قتيبة: "وإن وقف موقفا وسطا بين القدماء والمحدثين من حيث بلاغة القول ووجودها عند هؤلاء وهؤلاء فقد مال إلى القدماء من حيث طريقتهم ونهجهم في القصيد، وجارى كثيرا من العلماء واللغويين في أن هذه الأصول القديمة يجب أن لا تمس في جوهرها، فليس لشاعر محدث أن يخرج على مذهب المتقدمين في الأقسام التي يجيئونها في ابتداء القصائد، ليس لمحدث أن يقف على منزل عامر ولا أن يرحل على فرس ولا أن يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد لأن المتقدمين وقفو بالمنزل الدارس ورحلوا على الإبل وجروا على قطع منابت الشيح".[22]

بهذا التوجه وهذه الرؤية يكون ابن قتيبة قد هدم أهم أصل من الأصول التي بنى عليه رؤيته، وهو عدم التحيز للقديم وعدم إهمال الحديث لمجرد القدم، بأن فرض على المحدثين عدم الخروج على منهج القصيدة القديمة والالتزام بقواعدها وأسسها.

والحقيقة التي لا خلاف فيها كما يبدو، أن ابن قتيبة لم يستطع أن يتحرر من تأثير قيود القديم عليه، ولا أن يخفي هذا في كتاباته، ولا حتى أن ينكر حبه له، كيف لا وهو الذي درس عند جهابذة علمائهم، وتشبع بأفكارهم وورد من معين لغتهم وبلاغتهم، بالإضافة إلى هذا، اشتغاله بالقضاء الذي أثر على توجهه تأثيرا بليغا، لا من حيث رفضه لأشعار المجون واللهو وغيرها، بل حتى في نظرته عند استخراج المعاني من أشعار القدماء والمحدثين وطريقة المفاضلة بينهما، فالاحتكام عنده يكون على معيار الجودة والرداءة، لا من حيث البناء الفني للأبيات، وإنما من حيث المعنى –إن صح التعبير– الأخلاقي لها، هذا ما لمسناه عنده سابقا في قضية اللفظ والمعنى وخصوصا عند إسقاطه لأبيات ( ولما قضينا من منى كل حاجة)، والتي كشفت إلى حد بعيد الخلفية التي كان يفاضل بها بين الشعراء، فالميزان الذي وضعه ابن

قتيبة في المفاضلة بين القدماء والمحدثين هو ميزان القدماء نفسه إن نحن أغفلنا المقدمة التي جاء بها في كتابه الشعر والشعراء، والتي وإن لاحظنا لها تطبيقا في بداية كتابه عند تقسيمه للشعر من حيث اللفظ والمعنى، وذلك عندما أورد أبيات للقدماء والمحدثين في محاولة منه أن يقف موقفا وسطا يوازن فيه بين كفتي القديم والمحدث؛ وذلك بإيراد جيد كل منهما، ثم يتبعه بالرديء ليبين أن الجيد ليس مقصورا على القدماء وحدهم كما أن الرديء ليس من سمة المحدثين وحدهم، بل إن الرديء والجيد موجود في كل زمان ومكان، ولعل هذا الذي أراد أن يثبته في بداية مقدمته حين قال: "ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ".[23] ثم بعد هذا الموقف لم يقم ابن قتيبة بأي خطوة أخرى تحسب له في إنصاف المحدثين بل على العكس قد مال إلى ترجيح كفة القدماء دونما شعور منه، كما لاحظنا ذلك آنفا.

## 2- آراء ابن قتيبة في نقده للشعر في كتبه الأخرى.

كان ابن قتيبة ذا منهج نقدي متميز يتسع باتساع المجالات الثقافية والفكرية آنذاك، فهذا الأخير كان يقف وسيطا بين القارئ والأديب، فيفسر عمل الأديب ويُعين القارئ على فهم إنتاجه الأدبي عن طريق تحليله لهذا العمل وتبيان خصائصه الجمالية وما يتضمنه هذا الإنتاج من فكر ومعنى.

شملت دائرة النقد عند ابن قتيبة الكثير من الأطروحات الأدبية وعالجت مضمونها، متخذا من نصوصها مجالا للحكم عليها، معتمدا في ذلك على أسس نقدية سابقة أو مبتكرة، منها ما يتعلق بالشعر وبطريقة تفسيره وتحليله، وبعضها الآخر شمل حيز النقد والمفاضلة بين القديم والحديث، ومن أهم هذه الكتب نجد كتاب (أدب الكاتب)، وهو من سلسلة الكتب التي ألفها العلماء لإعانة الكتاب المحدثين على الكتابة، "فيبدؤه بمقدمة يضمنها بنصائح للكتاب على طريقة بشر بن المعتمر، إلا أنه يخالف بشرا في مذهبه الفكري ويخالف كذلك الجاحظ في عدم الأخذ بالسهولة بل ينبغي تعلم اللغة العربية والشعر القديم".[24] يقول في مقدمته: "ومدار الأمر على القطب هو العقل وجودة القريحة، فإن القليل معها بإذن الله كاف، والكثير مع غيرها مقصر، ونستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه"[25]، كما يقول كذلك في مقدمته: "ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه، نظر من وجهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب، وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، فنصب لذلك وعاداهُ وانحراف عنه إلى علم قد سلَّمه له ولأمثاله المسلمون، وقلَّ فيه المتناظرون، له ترجمةٌ تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغُمْرُ والحدث الغِرُّ قوله: الكون والفساد... راعه ما

سمع، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعها لم يَحْلَ منها بطائل، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه "[26]. يدلي ابن قتيبة برأيه في أصحاب المنهج الفلسفي والمنطقي الجاف، الذي يسعى إلى تفسير كلام الله وسنة نبيه بالاعتماد على العقل، وهذا ما يرفضه ابن قتيبة وينكره ويعتبره خطأً في حق القرآن الكريم والسنة النبوية، إذ تجده يطالب من الكتاب الناشئين بعدم التعلق بالفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الأوائل، التي تغري ناشئتهم وتبهر عيونهم وعقولهم، ويطلب إليهم الاهتمام بدلا من ذلك بالقرآن الكريم وبالسنة الشريفة والشعر لينفعهم ذلك في عملهم، إذ لا يصلح لكُتّاب دولة عربية إسلامية عدم التعمق في هذه العلوم، كما نجده أيضا يطالب من الكُتّاب أن يتقنوا صنعتهم بالتدقيق في الاختيار فيقول: "الألفاظ نهج مراعاة الأسلوب وصحة العبارة، بحيث يخلو من التقعر واللحن ذلك إلى ضرورة مناسبة الكلام لمقتضى الحال".[27]

لهذا فإنك تجده يَعْرِض جملة من الأخطاء اللغوية الشائعة ويبين ما فيها من الخطأ الذي جرى على ألسنة العوام، فيصحه بذكر ما ورد على لسان العرب، ويعمد إلى ذكر معارف لغوية عامة، فيتحدث عن باب ما جاء مبني في مستعمل الكلام، أو باب ما يستعمل من الدعاء، وأصول أسماء الناس المسمين بأسماء النبات، والمسمون بأسماء الطير، ويتحدث عن أسماء النجوم، والأزمان والرياح والفلك، ومدار النجوم والمجرة، والنجوم سميت كذلك لأنها كأثر المجر. ومنها الخيل وما يستحب في خلقتها وما يستقبح فيورد أمثلة للمحاسن والعيوب في شياتها وألوانها. وخلق الإنسان وما يتعلق به وبحياته وطعامه وشرابه وما يستعمله ثياب وسلاح".[28]وبهذا يكون كتاب (أدب الكاتب) كتابا تعليميا لا يدخل في ميدان النقد بالصورة التي نعرفها الآن وعرفه بها العرب.

نجد كذلك كتاب (المعاني الكبير)، وقد ضاعت مقدمة هذا الكتاب مع ما ضاع منه، فلم نجد في هذا الكتاب إشارة تحدد الغاية منه، ويرى محققه أن هذا الكتاب لون من الاختيارات الشعرية، إذن أن "من العلماء من دَوّنَ الشعر بصفة أهل القبائل كديوان أشعار هذيل، ومنهم من دونه بصفة دواوين لأفراد الشعراء كديوان الأعشى وديوان النابغة الذبياني، ومنهم من اختار عدد من القصائد كالأصمعيات والمفضليات، ومنهم من انتخب قطعا رتبها على حس معانيها كالحماسة لأبي تمام، ومنهم من جمع الأبيات الغريبة المعاني المتباينة على أفهام أكثر الناس وهي أبيات المعاني".[29]

إن المتطلع في أبواب هذا الكتاب يرى "أن أكثر مادته أشياء أغفلتها كتب الأدب التي تعودت أن تتحدث عن الإنسان مفتخرا أو مادحا، أو شاكيا أو عاتبا، أو محبا أو كارها، وأن أكثرها تنصب على

الحيوان والأواني، والسلاح والعادات، والظواهر الكونية، ففي الأول منها تحدث عن ألوان الخيل وعرقها واضطرام عدوها وحفيفه ولواحقها بالصيد ومشيها وجريها". [30]

مختصر القول إن المتطلع لهذا الكتاب يرى أن ابن قتيبة يقوم بعملية تفسير لما ورد في الشعر العربي وتصوير الحياة في المجتمع العربي القديم، وأنه من خلال هذا تبدو لنا حقيقة نظرة ابن قتيبة إلى الشعر القديم ومدى اهتمامه به، لهذا كان يجمع الكثير من الكتب التي تناولت الشعر القديم في مواضيعها ومحتوياتها.

إذا انتقلنا إلى كتاب آخر ك"الأنواء" الذي يعد من أبرز كتبه النقدية التي تناولت قضية الشعر القديم، نجده يقول في مقدمة هذا الكتاب: "هذا الكتاب أخبرت فيه بمذاهب العرب في علم النجوم مطالعها ومساقطها وصفاتها وصورها وأسماء منازل القمر فيها وأنوائها، وفرق ما بين يمنها وشامها، والأزمنة وفصولها، والأمطار وأوقاتها، واختلاف أسمائها في الفصول وأوقات التبدي وارتياد الكلأ وأوقات حُضور المياه، وما أودعته العرب أسجاعها في طلوع كل نجم من الدلالات على الحوادث عند طلوعه، وعن الرياح وأفعالها وتحديد مهبها وأوقات بوارحها، وعن الفلك والقُطب والمجرة والبروج والنجوم الخنس والشمس والقمر ودراري الكواكب ومشاهرها والاهتداء بها، وعن السحاب ومخايله ماطره ومخلفه والبروق خليّها وصادقها وأمارات خصب الزمان وجدوبه إلى غير ذلك....أدركت بعضها بالتوفيق وبعضها بالاعتبار، واستخرجت بعضها من الأشعار، ونبهت على إغفال من أغفل من الشعراء وخالف ما عليه أكثرهم لشبهة دخلت عليه". [31]

إن المتمحص لهذا الكتاب يرى عملية التفسير اللغوي المعهودة لغريب الشعر أو لأي بيت اكتنفه الغموض في فكرة ما، إذ لا نستطيع أن نعد ما عمله ابن قتيبة في الكتب الثلاثة السابقة من تفسير لمعاني الأبيات أو مفرداتها عملا نقديا، وإن كان قد أدى دورا مهما في تقريب الأبيات من أذهان القارئين ومدركاتهم إلا أنه في الحقيقة لم يتجاوز بهذا الحد اللغوي إلى الحد النقدي، فلم يستطب النصوص التي ذكرها شعوريا أو عاطفيا، ولم يُبْدِ ما في كلماتها من ظلال جمالية، ولم يبين القيم الموسيقية أو الخيالية في أي نص منها، ولكنه ظل لغويا إلى أقصى حد في هذا الجانب.

حاول ابن قتيبة في هذا الكتاب (الأنواء) أن يوضح مكانة الشعر عند العرب، بحيث كانت لا تعرف علما أصح منه، فكان هويتهم وصورتهم ومستقر لعلومهم وتقاليدهم، فالشعر ديوان العرب كان يرتبط ارتباطا وثيقا بالشاعر العربي القديم، فكان وسيطاً بين الشاعر والمحيط الذي يعيش فيه، لذلك كان في نظر

ابن قتيبة مصدراً من مصادر اللغة، وإن كانت هذه النظرة قد سبقه إليها الكثير من النقاد وهو حريٌ أن يسير على نهجها.

بالإضافة إلى مجموعة الكتب التي تطرقنا إليها فيما سبق يوجد هناك أيضا كتاب آخر من أهم الكتب التي تناولها ابن قتيبة في مدوناته النقدية وهو كتاب "تأويل مشكل القرآن"، وهذا الكتاب درس فيه قضية الشعر الجاهلي في مشكل القرآن، بحيث مثل الشعر مصدراً مهما في تفسير القرآن الكريم، فله دور استشهادي وما يبرر هذا قوله: "أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشيء وإغماض بعين المعاني حتى لا يظهر عليها إلا للفن، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة وماتت الخواطر....وعلى هذا المثال كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة والتابعين وأشعار الشعراء، وكلام الخطباء ليس منه شيء إلا وقد قيل فيه المعنى اللطيف الذي يتحير فيه العالم المتقدم، ويقر بالقصور عنه النقاب المبرز"[32]، وعلى هذا فالشعر أحد الأسس الكلامية التي جاءت على مثال فنية القرآن الكريم غموضا ووضوحا، طولا واختصارا، مجازا وحقيقة، ويأخذ ابن قتيبة في بيان ذلك فيقول: "ما غمض من معاني آي القرآن لالتباسه بغيره، واستتار المعاني المختلفة تحت لفظه، وتفسير المشكل الذي ادعى على القرآن فساد النظم فيه، وقبل أن يقوم بذلك يقدم — أبواب المجاز– إذ أن أكثر غلط المتأولين من جهته".[33]

ومن خلال أبواب المجاز التي ذكرها وهي الاستعارة المقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه والكتابة ومخالفة اللفظ لظاهره معناه، نجد الشعر يقوم بدوره استشهادي في كل باب من هذه الأبواب المجازية لتأكيد صحة النظرية التي قالها من قبل "من أن القرآن نزل بألفاظ العرب، ودور ابن قتيبة في بيان ما في الشعر من ألوان مجازية مختلفة وكما يقوم بدور تفسيري يقوم كذلك بدور حكمي صريح تبدو ضمنية، إذا راعينا أن الشعر الذي ذكره على حذو القرآن فنيا، وما دام القرآن على درجة عالية من البيان فيجب على الأقل أن يكون الشعر ممتازا وإلا لما كان سبيله سبيل القرآن".[34]

إن المتفحص لهذا الكتاب يرى أن ابن قتيبة كان يضع القرآن الكريم في أعلى المراتب وفي الدرجة الأولى من اهتمامه، بحيث لا يمكن للشعر أن يجاريه في الإبداع رغم ما يحويه هذا الأخير من استعارة وكناية وتكرار للكلام ومخالفة في اللفظ لظاهر معناه، لذلك كان ابن قتيبة يحاول تفسير الشعر على أساس مخالف للتفسير اللغوي الذي اعتمد عليه في كتبه السابقة، وتتضح فنيته في توضيح ما في الشعر من ألوان مجازية

مختلفة، وعلى أية حال فابن قتيبة في موقفه من الشعر خلال تأويل مشكل القرآن لا يصدر عن الحرية العلمية التي قال إنه سلك سبيلها، وإنما هو محكوم بشيء أكبر من حريته وهو اعتقاده ودينه، ولهذا كانت جُل أحكامه مرتبطة بهذا المعتقد، وسنجده يخالف جانبا منها عندما يتحدث عن الشعراء البشريين الذين يخطئون ويصيبون.[35]

وبعد هذا العرض لهذه المجموعة من الكتب، يمكن القول أن ابن قتيبة كان يعتمد على النقد التقويمي الذي يقوم على إصدار الأحكام بناء على قواعد عامة ومسبقة أو مبتكرة، ولكنه لا يذكرها إلا في القليل النادر. كما أن نقده يميل بشكل كبير إلى الموضوعية، فتجده يذكر أسباب الحكم الذي رآه أو اقتنع به، وأحيانا يكون حكمه خال من أي تبرير، وبالتالي يمكننا القول أن مجمل أرائه النقدية جاءت إما أحكاماً تفسيرية أو أحكاما ذاتية وموضوعية، تشكلت عند ابن قتيبة دون أن يكون على معرفة بحدودها في غالب الظن.

## 3- دراسة وتحليل لمواقف ابن قتيبة النقدية:

من خلال ما سبق ذكره عن ابن قتيبة وخصوصا في نقده للشعر، يتبين لنا تلك المفارقة النقدية التي وسم بها مفهومه الشعر، إذ أنه من الغريب أن نجد من خلال كتابه (الشعر والشعراء) ومن خلال كتابه (أدب الكاتب) الكثير من النظرات الصائبة في مجال النقد والأدب، ثم ما يلبث في الوقت نفسه أن يخرج عن تلك الآراء التي تكاد تناقض ما ذهب إليه في بدايته تماماً، فهو حين يبدأ كتابه (الشعر والشعراء) يضع لنفسه منهجا يعترض فيه على من يقدم من العلماء الشعر القديم لقدمه، فنجده يقول: "فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يمنعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه، كما أن الرديء إذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه"[36]، وتراه يهاجم مذهب الفلاسفة ومنهجهم من خلال مقدمة كتابه (أدب الكاتب) حيث يقول: "ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدي وثلج اليقين".[37] إذ يتضح لنا من خلال هاتين الفقرتين ثورة ابن قتيبة على نهج العلماء ومنهج الفلاسفة والمناطقة، ومع ذلك لو رجعنا مرة أخرى إلى كتابه (الشعر والشعراء) لوجدنا ما يناقض هذه الدعوة ويهدمها من أساسها ومدى تأثره بمنهج العقلانيين والفلاسفة، وإقحامه هذا المنهج في دراسة الأدب وتذوق الشعر وفهم كتاب الله وأخبار رسوله، فتفسيره لتأليف القصيدة العربية وانتقال الشاعر فيها من الغزل إلى وصف الناقة إلى المديح، تفسير يدل على النظرة العقلية الصرفة."[38]

وليس هناك شيء أدل على تأثر ابن قتيبة بالنزعة الفلسفية المنطقية من إخضاعه الشعر للقسمة الحادة الصارمة بين اللفظ والمعنى، معتمدا على الحصر المنطقي طريقا ومنهجا، ضاربا عرض الحائط كل ما حذرنا منه سابقا"[39]، فإذا نظرنا إلى هذه المفارقة اتضح لنا مدى مخالفة ابن قتيبة لما نهجه لنفسه في مقدمة كتابه (أدب الكاتب) ولعل ما يزيد عمق المفارقة عنده انتقاله إلى بنية القصيدة العربية كما لا حظنا سابقا، فيري أنها تنقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسة هي: "المقدمة في النسيب، ثم الرحلة ووصف الراحلة، فالموضوع الرئيس وهو المديح غالبا". ثم يأتي بعد ذلك ليفرض هذا النموذج على المحدثين ويلزمهم به بعدم الخروج عنه. أو إحداث أي نوع من التغيير أو التعديل فيه، وفي هذا يقول الدكتور عثمان موافي: "أنه مهما حاول بعض نقادنا المعاصرين تبرير وجهة نظر ابن قتيبة هذه والإيحاء بأنها موجهة لنهج أبي النواس في استبداله بكاء الأطلال بالوقوف على الحانات*، فواضح تماما أن فرضها على القصيدة الحديثة بطريقة تعسفية وإلزام الشاعر المحدث بالتمسك بنصها يقيد حريته الفنية، ويَحُدُّ من حركته نحو التجديد والإبداع الفني". [40]

وبهذا يعلن ابن قتيبة وبصريح العبارة المحافظة على النظام القديم للقصيدة العربية، وضرورة التزام الشاعر المحدث بتقاليد الشعر العربي القديم، وعدم الخروج عليها باتباع تقاليد جديدة، "وتبدو هذه النظرة من ابن قتيبة معارضة للنظرة السابقة، في حديثه عن القدماء والمحدثين. إذ حاول أن يقف موقفا وسطا، لا يناصر فريقا على آخر، أو طريقة في الشعر على أخرى، إنما قال إن المهم عنده جودة الشعر دون النظر إلى صاحبه، فلا يقدم القديم لقدمه، ولا يؤخر المحدث لحداثته، ولكن مقاييس الشعر التي يبني عليها الجودة والقبح هي نفسها مقاييس الشعر القديم، فإذا وزن بها القديم رجح وخاصة في هذا الموضوع، لأن المحدث الذي يطالب أن يجاري القدماء في وصف الأطلال، وهو لم يعاين حياة البادية وإنما يعيش في المدينة في الحضر بين الحدائق والقصور، مقصر لا محالة، لأنه مقلد غير مُبتكر يجري على نهج مطروق لا جديد فيه ولا مجال لجديد، وبني تصوره لنظام القصيدة على أساس شعر التكسب". [41]

ولعل الذي يزيد من تأكيدنا على ميل ابن قتيبة للقديم وتتبعه لمنهج مشايخه؛ إهماله لشاعرين مهمين شغلا حيزا كبيرا من القضايا التي دارت حولهما الكثير من الخصومة، ألا وهما البحتري وأبو تمام ولعلنا نجد مبررا لإهماله للبحتري وعدم الترجمة له مع الشعراء المحدثين، كون هذا الأخير لم تكتمل أعماله الأدبية حين ألف الكتاب إذ عاش البحتري بعده وتوفي سنة284هـ.

" أما أبو تمام فقد اكتملت أعماله وتوفي سنة (231هـ أوسنة 232هـ)، وقد ترجم ابن قتيبة

لدعبل بن علي الخزاعي وهو متوفى 246هـ، أي بعد أبي تمام بأربعة عشر عاما على الأقل، وإذن فهو يهمل ذكر أبي تمام عن عمد وقصد واختيار، فهل يعني هذا أنه لا يرضى طريقة أبي تمام ولا بشعره كله؟ ربما كان من العسف في الرأي أن نقول هذا، لأننا نجد في كتاب باب الشعر من كتاب عيون الأخبار يقتصر على مختارات لبشار وأبي تمام خاصة عدا الأبيات المفردة، والنظرة الطائفة أو الخاطفة في الأبيات التي اختارها للشاعرين...ترى أن لغة البديع بأشكالها المبعدة في الاستعارات، والمتكلفة للمطابقات والمغرمة بالجناسات ليس لها نصيب واضح فيه، وإن لم تخلو من ذلك تماما، إلاّ أنَّ ما جاء منها لا يمكن لناقد فيه قدر من الإنصاف أن يعيبه لتكلف أو لإبعاد في التصور أو العلاقات أو كثافة في الكميات "[42].

إذا، فالمشكلة عند ابن قتيبة تكمن في البديع، فالبديع الذي لا يزيد إلى درجة التعقيد والتكلف، "ولا يصل إلى حد الإجهاد في البحث عن علائق استعاراته وتشبيهاته، لا ينبذ ولا يترك، بل إن هذا البديع عنده أحيانا ما يكون ظاهرة حسن يحسب للشاعر، ولعلنا نحس بذلك في ترجمته العباس بن الأحنف ومن بديع تشبيهه قوله في المرأة إذا مشت:

كأنها حين تمشي في وصائفها تخطو على البيض أو خضر القوارير"[43]

أما إذا وصل هذا البديع إلى درجة لا توجد بين الألفاظ والمعاني علاقة منطقية. فإن هذا البديع مذموم في نظر ابن قتيبة بصفة خاصة، والنقاد القدماء بصفة عامة، وهذا السبب هو الذي جعل ابن قتيبة يسقط شاعرنا أبو تمام من كتابه الشعر والشعراء رغم أنه ترجم لكثيرا من الشعراء الذين عاشوا بعده.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن ابن قتيبة اعتمد في ترجمته للشعراء على المعايير القديمة والمتمثلة في عمود الشعر، فما وافق هذا النهج ترجم له وأشاد به وقاس جودته بجودة القدماء، ومن لم يسر على خطاهم رفض شعره ولم يضعه في ميزان النقد عنده.

وربما تسامح ابن قتيبة مع البديع الذي لا يؤدي إلى التعقيد والتكلف وهذا الأمر لم يكن جديدا أو مقصورا عليه، فقد رأينا نظرة مماثلة لأستاذه الأصمعي الذي بدا غريبا في تقديمه بشاراً على مروان بن أبي حفصة معللا سبب هذا التقديم: "بأن مروان سلك طريقا كثر سلاكُهُ فلم يلحق بمن تقدمه، وإن بشاراً سلك طريقا لم يسلكه أحد فانفرد به وأحسن فيه وهو أكثر فُنون وأقوى على التصرف وأغزر وأكثر بديعا، ومروان آخذ بمسالك الأوائل".[44] ولم يكن الأصمعي وحده من فعل هذا بل جاء من بعده الجاحظ الذي اعترف بشعراء البديع بقوله: "وبشار حسن البديع والعتاب يذهب في شعره في البديع مذهب بشار"[45]، وأشاد بشعر أبي النواس واستشهد ببعض شعره.

من هنا يتبين لنا أن ابن قتيبة "يحتذي في موقفه من القديم والجديد طرائق أساتذته فإذا أعجبهم البديع في حدود الاعتدال ترجم لمن أعجبوا به من أصحاب البديع. وإذا هم أهملوا الجانب المغرق في إبعاد الصور تجاوز هو هذا الجانب أيضا وصاحبه لم يحظ عنده باهتمام".[46]

والخلاصة التي نصل إليها من خلال هذا التحليل أن ابن قتيبة لم يختلف كثيرا عن أساتذته ومشايخه في دراسته للشعر ولعل الاختلاف الوحيد ذلك الذي أعلنه في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" حين قال: "فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله".[47] وغير ذلك لم نجد له أثراً في ثنايا كتابه بل نراه مخالفا لما قاله سابقا حين أعلن على المحدثين الالتزام ببنية القصيدة العربية.

ولعل نظرة ابن قتيبة للشعر كما رأينا لا تختلف عمن سبقه من النقاد واللغويين والرواة، فنظرة الأصمعي وهو من المتعصبين للقديم حينما أسقط فيها الشعراء المحدثين أمثال (الفرزدق وجرير والأخطل) رغم شهادته بجودة شعرهم، لا تختلف عن نظرة تلميذه ابن سلام الجمحي التي أسقط فيها شعر الطرماح وعمر بن أبي ربيعة، وهي النظرة التي تكاد أن تكون على شاكلتها عند ابن قتيبة حين أسقط فيها من كتابه الشعر والشعراء أبي تمام والبحتري.

إذن فالمسألة ليست مسألة جودة أو رداءة وإنما هي مسألة وقت حتى يثبت الشاعر وجوده في الساحة الأدبية، ويعلن الناس أعجابهم به بروايته وتداوله، مجبرا بذلك النقاد والرواة اللغويين على تقبل هذا الشعر الجديد. ليصبح فيما بعد قديما ببعد العهد عنه، ولعل أبو تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم خير مثال على ذلك، فما كاد يستسيغ الناس والنقاد واللغويون شعر أبي تمام؛ حتى ظهر المتنبي بشعره الذي شغل الناس والنقاد والشعراء ودارت حوله الكثير من المعارك النقدية والأدبية.

ثم إن هذه النظرة إلى القديم والمحدث لم تكن جديدة على ابن قتيبة؛ فقد سبقه إلى ذلك الجاحظ، ولعل الاختلاف الوحيد بين نظرته ونظرة الجاحظ يكمن فقط؛ في أن الجاحظ فضل منذ البداية العرب عامة على المحدثين، وذلك لاقتدارهم على قول الشعر، ولتمكنهم من زمام اللغة والبلاغة والنحو وغير ذلك، والمحدثين ما هم إلا مقلدين وسائرين على نهجهم، وإن كان لهم فضل الإبداع والحسن والجودة في كثير من الأحيان.

حاول ابن قتيبة في الأخير أن يقف من خلال المقدمة التي وضعها موقفا معتدلا، يكون فيه القاضي العادل الذي يحكم بين القديم والمحدث بميزان الجودة والرداءة على الرغم من عدم استطاعته تطبيق هذا المنهج.

**إحالات البحث:**

**1** -ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ص59.

**2**- المصدر نفسه، ص59.

**3**- المصدر نفسه ، ج1، ص70.

**4**- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص 279.

**5** – محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، مصر 1996، ص32.

**6** – محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص 281.

**7** – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص62-63.

**8**- عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العَلوي، دار الفكر العربي، مطبعة دار القرآن، ميدان الأزهر الشريف، ص436.

**9** -عثمان موافي، دراسات في النقد العربي، دار المعرفة الجامعية،2000، ص89.

**10**- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى ق4هـ، منشأة دار المعارف بالإسكندرية، ص140.

**11**- عثمان موافي، دراسات في النقد العربي، ص89.

**12** - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص77-78.

**13** - المصدر نفسه، ص88.

**14**- المصدر نفسه، ج1، ص90.

**15**-المصدر نفسه، ص90.

*سمح بالشعر: جاد به عن سخاء.

* الغريزة: القريحة والسجية والطبيعة من خير أو شر.

*ولم يتزحر: (لم يئن)، من الزحير، وهو إخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة.

**16** - المصدر نفسه، ج1، ص94.

**17** - المصدر نفسه، ج1، ص94.

**18**- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى ق4هـ، ص143.

**19** - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص 75.

**20** - المصدر نفسه، ص 76-77.

**21**- عثمان موفي، دراسات في النقد العربي، ص92.

**22** - طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب [من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري]، بيروت، المكتبة العربية، 1401هـ-1981م، ص122.

**23** - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص62-63.

**24**- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، ص321.

**25**- ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق: محمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص14.

**26**- أدب الكاتب، ابن قتيبة، ص7.

**27** -. ينظر زغلول محمد سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، ص321.

**28** - المصدر نفسه، ص322.

**29** - ابن قتيبة، مقدمة المحقق كتاب المعاني الكبير، ص8.

**30** -عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا، ص109.

**31** - ابن قتيبة، الأنواء في مواسم العرب، صحح عن النسخ المحفوظة في المكاتب الشهيرة، (مكتبة بولدين اكسفورد، تحت رقم 480)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص1-4

**32** - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص62.

**33** - المصدر نفسه، ص70

**34** - ينظر عبد السلام عبد الحفيظ، كتاب نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا، ص114.

**35** - المرجع نفسه، ص 115.

**36** - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص63.

**37** - ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص7.

**38**-ينظر محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص31، وينظر محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي ص277.

**39**-محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي، ص277.

* -إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، دار الثقافة بيروت، ط4، لبنان، 1404هـ- 1983م، ص112.

**40** - عثمان موافي، الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها، دار المعرفة الجامعية، ط3، مصر2000، ص235.

**41** محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، ص 140.

**42**- عبد السلام عبد الحفيظ، نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، ص437.

**43** - المرجع السابق، ص438.

**44**- الأصمعي، فحولة الشعراء، تحقيق: ش. توري قدم لها: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ص47.

**45** - الجاحظ، البيان والتبين، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ط1، بيروت، 1948م. ص45.

**46** - عبد السلام عبد الحفيظ، نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، ص442-443.

**47**- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص62.